بين اللفظ والمعنى

بقلم أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

(١)

لسنا نريد فى هذه الكلمة السريعة أن نحيط بجميع ما كتبه نقاد العرب عن اللفظ والمعنى، وقيمة كل منهما فى درجة الفن الأدبى وجماله، كلا. ولسنا نحاول الإلمام الإجمالى بشىء من ذلك، إذ كان متناثراً فى ثنايا الكتب والسطور مضطربا لا يخضع لوحدة موضوعية أو أسلوبية: وذلك كله يحتاج إلى بحث خاص يجمع شتاته، ويسلكه فى نظام علمي حديث لا تتسع له صفحات هذه الصحيفة العتيدة. ولكنا نحب أن نقف هنا وقفة الطائر على رأيين واضحين، عرض لهما اثنان من رجال البلاغة والنقد الأدبى قديماً، هما ابن قتيبة أبو محمد عبدالله ابن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه «الشعر والشعراء»؛ ثم الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ فى «أسرار البلاغة». وهذان الرأيان قد اختلفا فى نقطة خطيرة جد الخطورة، من حيث اتصالهما بعناصر الأدب، وقيمة كل عنصر من الناحية الفنية. ثم طريقة فهم الأدب وردّه إلى نواحى جودته عند العرب القدماء، وعند الفرنجة المعاصرين.

(٢)

يقول ابن قتيبة فى مقدمة كتابه: «تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب حسن لفظه وجاد معناه، كقول القائل:

فى كفه خيزران ريحه عبق من كف أروع فى عرنينه شمم

يغضى حياء ويغضى من مَهابته فما يُكلمُ إلا حين يبتسم

لم يقل أحد فى الهيبة أحسنَ منه .

وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا ، كقول القائل :

ولما قضينا من منى كلَّ حاجة ومسح بالأركان من هو ماسحُ

وشُدّت على حُدْب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شىء مطالعَ ومخارجَ ومقاطعَ ، فإذا نظرت إلى ما تحتها وجدته : ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح . وهذا الصنف فى الشعر كثير ، ونحو منه قول جرير :

إن الذين غَدَوا بلبّك غادروا وَشَلاً بعينك لا يزال مَعينا

غَيَّضْنَ من عبراتهن ، وقلن لى : ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ ،

إلى آخر ما أورد فى مقدمته هذه من الأضرب والأمثلة .

ويجب أن نقف هنا قليلا لنسجّل على ابن قتيبة أنه أرجع الشعر إلى عنصرين أو ركنين اثنين : اللفظ والمعنى ، وأنه جعل المعنى قسيما للفظ يتناول ماسواه مما يفهمه الإنسان أو يشعر به حين يقرأ الشعر ، أو بالأحرى حين يقرأ الأدب ، إذ كان الشعر هو الفن الأدبى الممتاز . ثم نعود فنسأله هذا السؤال الذى لا ننتظر الإجابة عنه الآن : أهناك حقا فرق يتصل بعناصر الأدب بين مثاله للضرب الأول ومثاله للضرب الثانى ؟

(٣)

فلما جاء الجرجانى ظهرت فى كتابيه : « دلائل الإعجاز » ، و « أسرار البلاغة » قوة عنيفة فى مناقشة الأقدمين ، تنتهى هذه القوة إلى رأى خطير : هو أن البلاغة أو القيمة الفنية فى الأدب ، ترجع إلى تكوين الألفاظ على وفق المعانى ، وما

تقتضيه هذه من نظام وتعبير ؛ وذلك هو ما يسمى عند النقاد المحدثين بالأسلوب « Style » . ولما عرض لشرح هذه الأبيات السابقة ـ أو بعبارة دقيقة لتحليلها إلى عناصرها الأدبية ـ على هذا الأساس الذى شرحه فى كتابيه شرحاً شافيا ، رأيناه يختلف عن ابن قتيبة اختلافا واضحاً وخطيراً . وكأنه يرد بذلك على ابن قتيبة وأضرابه ممن يمسخون الشعر ، ويعقونه حين يفسرونه تفسيراً سقيما مسلوب الروح ، يحيا فقط بهيكل عظمى جردته الجهالة الفنية من أعصابه وعضلاته ، إذ يقول الجرجانى :

« وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال :

* ولما قضينا من منى كل حاجة *

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم . ثم نبه بقوله :

* ومسح الأركان من هو ماسح *

على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر . ثم قال :

* أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *

فوصل بذكر مسح الأركان ماوليه من زم الركاب وركوب الركبان . ثم دل بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول ، وشجون الحديث ، أو ماهو عادة المتظرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء . وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان . واستماع التهانى والتحايا من الخلان والإخوان . ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق بها مفصل التشبيه . وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ إليه فى الأخذ بأطراف الأحاديث ، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ،

وفى حالة التوجه إلى المنازل . ثم قال : « بأعناق المطى » ولم يقل بالمطى ، لأن السرعة والبطء يظهران فى أعناقها . . . . الخ (١) » .

فاذا أردنا فهم كلام الجرجانى بما تقتضيه قوانين النقد الحديث ، ثم وازنا بينه وبين ابن قتيبة فيما يريدان من كلمة « المعنى » استطعنا أن ندون النتائج الآتية : —

أولها — أن عبد القاهر الجرجانى فهم من كلمة المعنى أموراً أخرى لم يفطن لها ابن قتيبة ومن لف لفه ، إذ أن الجرجانى أخذ يذكر لنا أنواعاً من الكناية والاستعارة والتشبيه والمجاز ، هى فى الواقع صور شتى لقوة المعنى وجماله ، كما يعرف ذلك من له إلمام بالفنون البيانية فى علم البلاغة العربية ، وهذه الصور هى فى الواقع عنصر أدبى قيم ، يسمى فى النقد الحديث : عنصر الخيال « Imagination » .

ثانيها — أن الجرجانى أشار كذلك إلى هذا الشعور الذى ملك نفس الشاعر حين تصور الحاجّ عائدين إلى أوطانهم بعد قضاء المناسك ، فرحين راجين المثوبة وحسن العقبى ، وهذا الشعور القوى أثار فى نفس الشاعر روعة صورها فى شعره حتى إذا قرأه الجرجانى انتقل هذا الشعور إلى نفسه فولد فيها عاطفة تشبه عاطفة الشاعر نفسه ، وهذه العاطفة عنصر أدبى هام فى الأدب يسمى عند الانجليز : « Emotion » أى انفعال أو عاطفة .

ثالثها — أن ابن قتيبة وقف فى شرحه الأبيات عند المعنى الحرفى ، أو الفكرة الأولى التى تعد أهون مافى الشعر من معنى ، وأدنى مايؤديه من غاية ، وليس من شك عندى أن الجرجانى يعرف هذا أيضاً ، ولكنه عزف عنه ساخراً منه ، إذ كان شيئاً ثانوياً غير مقصود فى فن الشعر ، إلا على أنه هيكل عظمى أو حجارة يعلوها النقش والتصوير .

رابعها — أنه يظهر لنا أن ابن قتيبة لم يوضح ، أو لم يتضح فى ذهنه ، ما هو مقصود بالمعنى عند الأقدمين أنفسهم ، بدليل الأمثلة التى أوردها للضرب الذى

(١) أسرار البلاغة (ص ١٤ — ١٧) طبعة المنار .

جاد معناه وقصر لفظه ، فبينا نراه يريد من المعنى الجيد حكمة أو حقيقة كقول لبيد :

ما عاتب الحرَّ الكريمَ كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالحُ

إذ نراه يريد من المعنى الجيد تشبيها سديداً محكما كقول الفرزدق :

والشَّيْبُ ينهض فى الشباب كأنه ليـــل يصيح بجانبيه نهارُ .

فما الرأى فى ذلك كله ؟

(٤)

يظهر أننا لانستطيع الفصل فى هذا الخلاف ، ووضع الأمر فى نصابه العلمى والفنى معا ، دون أن نوضح شيئا من هذه الأصول النقدية الحديثة ، التى تتصل بموضوع اللفظ والمعنى ، وهذه الأصول ليست فى الغالب شيئاً غريباً على قراء النقد العربى القديم ، إلا من حيث هذه المصطلحات التى تواضع عليها النقاد المحدثون فى الأمم الغربية .

يقوم النقد الحديث على أن للأدب عناصر أربعة ، يمكن أن ينحلّ إليها النص الأدبى ، وليس من شك أن هذه العناصر تختلف قيمتها ودرجتها باختلاف النصوص ، مما دعا النقاد أن يضعوا لكل عنصر منها مقاييسه النقدية المعروفة ، فإذا نحن قرأنا للبحترى قوله :

شواجر أرماح ، تقطع بينها شواجرُ أرحام ، ملوم قطوعُها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

استطعنا أول كل شىء أن نشعر بالحسرة التى سيطرت على نفس البحترى حين أنشأ هذا الشعر ، وهى الحسرة على شقاق يقع بين الأقارب ، قد يعقب الندامة والأسى ، وهذه الحسرة هى التى تسمى العاطفة « Emotion » . وهذا العنصر يعد أهم عنصر أدبى .

وهذا العنصر نفسه إنما أثاره فى نفوسنا هذه الأرماح المشتجرة التى تمزق الأرحام ، ثم هذه الدماء تسيل فى الحروب ، ثم الدموع تفيض ندامة . وهذه الوسائل التى ذكرنا تسمى عنصر الخيال « Imagination » ، وهو القائم فى الأدب

العربى على الفنون البيانية ، وبعض الفنون البديعية كذلك ، ولكن هذه العاطفة لاتثار فى النفس إلا من حقيقة واقعة خارجية تطرأ على الشاعر ، أو داخلية ناشئة عن تفكير مباشر ، وهي هنا : أن قتالا وقع بين حيين متقاربين من شأنه أن يولد العداوة والبغضاء ، فهذا العنصر يسمى الفكرة « Thought » ، أو الحقيقية وهو الذى يسميه ابن قتيبة « المعنى » حين يعرض لشرح الشعر .

وأخيراً هذه العبارات اللفظية التى تسمى اللفظ عند قدمائنا ، والتى تسمى عند الفرنجة أحياناً « Diction » أى العبارة وقد تسمى الصورة « Form » أو الاسلوب « Style » .

هذه هى العناصر الرئيسية الأربعة التى ينحل إليها الأدب فى رأى النقد الحديث ، وليس يفرق النقد فى قيمتها من حيث تعاونها جميعاً فى التأثير الأدبى ، وإن كان العنصر اللفظى وسيلة لنقل المعنى وتصويره ، إلا أنه لاينقص فى درجته عن سائر إخوته . ومن هنا ترى أن كلمة المعنى عند الجرجانى مثلا تقابل كلا من العاطفة والفكرة والخيال عند المحدثين من النقاد .

(٥)

فإذا اتخذنا هذا الأصل الحديث مقياسا لنقد رأى هذين الإمامين والفصل بينهما فى هذا الموضوع الخلافى ، كان من المعقول إنصافا لهما وللحق التاريخى والفنى أن نقر ما يلى :

(١) يقف ابن قتيبة فى فهم المعنى عند الحقيقة الساذجة ، أو المفهوم الحرفى للشعر ؛ وهذا يعد فى النقد قصورا معيبا فى فهم الشعر وسلبه ألزم خواصه الأدبية ، ولا سيما إذا كان هذا القصور يمس ناحية العاطفة ، التى هى العنصر الأول فى الأدب عامة ، وفى الشعر خاصة . وهذا هو مايفرق بين الأدب والعلم ، إذ كانت الحقائق فيه أهم الأركان وأولاها بالاعتبار .

(٢) لم يكن يلبث قتيبة دقيقا فيما ذكره فارقا بين الضرب الأول والثانى ، لأن أبيات الهيبة لا تحتوى شيئا من الحقائق الداخلة فى باب الحكمة مثلا ، وإنما هى أوصاف تنتهى إلى عاطفة الهيبة والاحترام ، وكذا الشأن فى وصف الشيب

للفرزدق ، إذ ينتهى إلى إعجاب بهذه الصورة الحسية التصويرية ليس غير ، وهو داخل عنده فى باب المعنى الجيد .

فإذا انتقلنا إلى هذا المثال الثانى الذى كان مثار النزاع بينه وبين الجرجانى وجدناه يجمع إلى جمال اللفظ ، وحسن الخيال ، ورقة العاطفة فكرة — أو معنى — كأبيات الهيبة والشيب التى عدّها مثالا لجودة المعنى ؛ فهل هناك فرق بين مثاليه للضرب الأول والثانى ؟ !

(٣) ومع ذلك فإذا وقفنا مع ابن قتيبة عند هذا البيت :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

الذى يقول فيه : « هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق » وجدنا أن قلة الماء والرونق — التى معناها فى التعبير الحديث ضعف جمال الأسلوب — ناشئة فى الأصل عن هذا المعنى الذى يعتز به ، إذ هذا المعنى حكمة من الحكم التعليمية ، وهذه الحكمة التعليمية تجعل الشعر أقرب إلى النظم ، وتسلبه شيئا من صدق الشعور القوى ، وهذا الشعور له دخل كبير ، بل هو السبب الأول فى جمال الأسلوب . على أن صلة الحقائق والحكم بالشعر لها حد دقيق فى فن النقد لا نحب الإطالة فيه ، وإن كان هذا لا يمنعنا أن نشير هنا إلى أن هذه الحقائق إنما تدخل الشعر لتخدم العاطفة ، وتبعث فيها حياة تعينها على الخلود .

(٤) هذا القصور الذى شهدناه عند ابن قتيبة قد برئ منه الجرجانى ، واستطاع فى درسه هذه الأبيات — أبيات الحج — أن يظفر بما فيها من مناحى الجمال الفنى وأن يستخرج منها أسباب هذا الجمال ، أو بعبارة حديثة ، استطاع الجرجانى فى حدود معارف عصره أن يحلّل هذه الأبيات إلى عناصرها الأدبية : من فكرة وعاطفة ، ولفظ وخيال ، وليس من شك أننا نوافقه على ما رأى من غير تحفظ كما يقول المحدثون .

(٥) والنتيجة التى نصل إليها من هذا البحث السريع هى أن كلا من اللفظ والمعنى له قيمته فى جمال الأدب ، وأن اللفظ فى الأدب يقابل ألحان الموسيقى وألوان التصوير ، فكما أن جودة الصورة وجمالها ، وتناسق الدور الموسيقى وتأثيره

إنما تكون باختيار الألوان وتناسبها ، وتأليف الألحان وحسن تركيبها ، كذلك الشأن فى العنصر اللفظى فى باب الأدب ، على أن هناك مسألة دقيقة يجب أن يلتفت إليها النقاد والمنشئون : هى أن جمال الأسلوب وقوته ووضوحه ، إنهى إلا صفات للمعنى قبل أن تكون للفظ ، وإطلاقها على اللفظ يعد من باب المجاز ، بل هناك ماهو أبعد من ذلك ، فإن الباحثين ينتهون إلى أن هذه الصفات تعود إلى نفس المنشئ كاتبا أو شاعرا ، فالوضوح فى الأصل ليس إلا وضوح المعنى فى ذهن الكاتب ، والقوة ناشئة عن قوة شعوره ، وأما جمال الأسلوب فصورة لذوقه الجميل .

* * *

وقبل أن أترك القلم أحب خالصا مخلصا أن ألفت نظر الذين يدرسون هذه الكتب القديمة إلى أن يحرصوا على ما يوجد بها من ذخائر نفيسة ، وأن يجتهدوا لعلهم يرون فيها كثيرا من هذه الأساليب والقوانين العلمية والفنية الحديثة ، ولا يغضبهم أن يعثروا بها متفرقة مضطربة . فإن ذلك من طبائع الرقى الاجتماعى والعلمى ، وإذا فلست شاذا عن هذا القانون إذا رأيت الجرجانى فى القرن الخامس الهجرى يتحدث عن عناصر الأدب كما يتحدث عنها نقاد القرن العشرين ؟

أحمد الشايب